الخطابة في العصر الأموي

أما الخطابة في العصر الأموي فقد نبغ لها من أسباب النهضة والنمو والسعة والازدهار من البيئة السياسية والاجتماعية ما زاد في أفقها ونوع في أغراضها ، وأنضج أسلوبها

فقد أتيح لها حرية القول ، وهي الدعامة القوية ، والرفد العظيم الذي يمدها بالزي والحياة

ومتى أستطاع الخطيب أن يعبر عما يجول بنفسه ، ويجول في صدره، ويدلي بما له من رأي في السياسة ، ويدعو لما يدين به من مذهب ، لا تهدده سطوة ، ولا تنوعده قوة ، يدعم بالدليل ما يعتقده ، ويفند بالحجة ما لم يؤمن به ، فهو صاحب الخطب المؤصولة والبيان الجهير

وإذا كان الإسلام قد كفل للناس الحرية فيما يقولون ، ولم يحجر عليهم فيما يدينون به بعد أن تبين الرشد من الغي فإن (معاوية بن أبي سفيان) حين قال (إن لم تكن إلا حكمة يشتفي بها مشتف حملتها تحت قدمي ودبر أذني إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا) ، قد مد في حبل هذه الحرية ، وأراح صدور الناس بما وفر لهم من الأمن على أنفسهم حين تطلق السنتهم بكل ما يدهبون إليه من رأي أو مذهب

وقد كان (معاوية) من الحجى والحكمة وسداد الرأي بمكان حين سن هذه الحرية للناس راضياً بها ، أو مضطراً إليها ؛ لما يعرف في نفوس العرب من قوة النكمة

وقد كانت الحرية التي دعا (معاوية) إليها دافعاً قوياً لقيام الأحزاب السياسية وأول الطريق إليها

وكم كان للأحزاب السياسية من يد على الخطابة بالصقال والحدال ، والمناقشة ، بل إنها كانت نعمة على (معاوية) نفسه ، فهي تفرق الكلمة ، واختلاف الجماعة ، سبيل لقوته واستقرار لحكمه

ولا يعيب عنا أن مناقضة في امية للاحزاب ، واحدهم بالقسر لم يكن الا بعد أن قويت شوكة الأحزاب ، وباتت تهدد الدولة ، أما قبل استفحال امر الفراق فإن (معاوية) وخلفاءه لم يضيقوا على الألسنة ، ولم يذهبوا من حدة الرأي .

ولقد أثر أن أعرابياً شهد أمام (معاوية) بشيء كرهه فقال له (معاوية) كذبت يا أعرابي ، فقال الأعرابي الكاذب والله مترمل في ثيابه ، فقال (معاوية) وتبسم هذا جزاء من عجل [1] .

والمعارضات في ذلك كثيرة مع الحجاج والمغيرة بن شعبة وعبد الملك ابن مروان وغيرهم وبعد ذلك كله امتداد لما حدث في العصر الإسلامي .

قوة الملكة :

اتصف العربي في عصر بني أمية بقوة الملكة ، أو قل إن شئت هي قوة الملكة واردهرت ، وسلامة السليقة ، واكتمال الموهبة كل ذلك أمدهم بالقدرة على مواقف الخطابة وارتياد ميادينها وليس ذلك بغريب - فهم عرب فصحاء مفطورون على القول ، ولهم بالجرأة على القول تميز واشتهار .

١- انظر دراسات في الأدب - د/ كامل الفقي صـ ٣٣ وجمهرة خطب العرب ج٢صـ ١٨٣

وقد قيل إن العرب أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان فقالوا رجل لسن اذا كان ذا بيان وفصاحة ولم يعد مثل ذلك من الكتابة [1]

لقد نصح العقل في عصر بني أمية . وهدب الملكات . وطوعت أزمة القول . واستمد الخلفاء مما استدروا من الأمصار المفتوحة . وصار ذلك محالاً جديدة للخطب . تجد فيها المعاني الوافدة . والأغراض المستحدثة وإن كانت الملكات في أواخر هذا العصر قد ضعفت وتطامنت وهان شأنها إلا أنه ضعف لا يحرج أصحابه الى حد العجز والانهيار

الأحزاب والفرق :

يعد قيام الأحزاب السياسية . وتعدد الفرق المذهبية من أهم بواعث الخطابة . وبنشيط سوقها في هذا العصر

وقد أثر في ذلك ما أثر من التراشق بالتهم . ولقد كان فيهم أمويون وزبيريون . وكان فيهم الشيعة والخوارج . وبين كل صيال وجدال ومن أثر ذلك خطب تتأجج . وبيان يتدافع . ووراء كل فريق عشاق يتبارون في القول لنهجوا السبيل . ويجيبوا الانصار . ولن تجد أفعل من ذلك النضال في إثارة البيان وصقله وتهذيبه

وحين ضعفت الأحزاب . وأعمدت سيوفها . سلب مكانها الألسنة . فكان للدولة معارضون أذكياء ينكرون سياستها ويديعون قالة السوء عنها . واضطر الخلفاء والأمراء أن يدافعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حيناً وبالقوة حيناً.

---

[1] ضحى الإسلام ج1 ص ١٧٤

obeikandi.com

وكل ذلك جعل خط الخطابة في هذا العصر عظيماً لم تبلغ مثله أمة من قبل إلا ما كان من أمر اليونان والرومان . ولقد كان للإيمان الذي يخالط شغاف القلوب . والعقيدة التي ترسخ في أعماق النفوس . من دفع قوى حزبية لأولى الإيمان والعقيدة أن يجهروا برأيهم . ويناضلوا لنصرة مذهبهم . ويستميتوا في نشر فكرتهم. لا يبالون في هذا بأذى . ولا يرهبون من جراء ذلك صاحب سطوة فلما نعي (الحسين) رضي في الكوفة نادى واليها (ابن زياد) إلى الصلاة الجامعة . ثم صعد المنبر وخطب فقال (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله . ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه . وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته . وما أكمل ابن زياد جملته حتى وثب إليه شيخ صغير هو (عبد الله بن عفيف الأزدي) وصاح قائلاً يا ابن مرجانه . أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك . والذي ولاك وأباه . ولم يطلع عليه النهار إلا وهو مصلوب [1]

وللخوارج في ذلك شأن عجيب . فقد كان لهم من قوة العقيدة ما حملهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهراً . بل كانوا يرسلون إلى الخلفاء والأمراء يدعونهم لمشايعة مذهبهم .

وقد بلغ من شأن الخطابة في هذا العصر أن أصبحت فناً يدرس . وعلماً يلقن يقاس به قيمة الرجال وقد روى أن (بشر بن المعتمر) مر على (إبراهيم بن جبلة) وهو يعلم الغلمان الخطابة . فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام (إبراهيم) فدفع إلى الغلمان صحيفة من تحبيره وتنميقه فإذا فيها من جملة ما فيها ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين

---

١ . انظر دراسات في الأدب ص ٣٦

وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات الخ)

سمات الخطابة الأموية :

لم تقم دولة الأمويين على الدين ، فقد علم قادتها أن مظهر الدين لا يقبل منهم ، ومن ثم عملوا على السياسة وشغلت الخطابة عن هذه النزعة ، وكان من أثر هذه الصنعة في خطبهم أنهم لم يعمدوا إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، بل غلا بعضهم فتحاشى عن استهلال الخطبة بالحمد كما فعل (زياد بن أبيه) في خطبته (البتراء) وقيل إن تمثله بالشعر أحب إليه من الاقتباس من القرآن الكريم .

وهذا اللون من الخطابة السياسية قد اقترن فيه قوة الأسر ، وصحابة العشيرة ، والتزيد في الوعيد ، والإصرار الشديد ، وكل ذلك قد اتضح في خطبة (زياد) البتراء

أما خصوم الأمويين المناوئين للخلفاء ، المناهضين لهم قد سيرت في خطبهم سمات من الابتداء بحمد الله ، والصلاة على النبي ، والاقتباس من الكتاب الكريم، كما يبدو في هذا الضرب من الخطابة التذكير بالآخرة والتحقير من الدنيا ، والدعوة إلى مجاهدة النفس والالتزام بحدود الله وظهر ذلك في خطبة ابي حمزة الشاري

خطبة لعمر بن عبد العزيز

خطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الـ ـ اكم لم تخلقوا عبثا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم . فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأماني غداً لمن خاف ربه وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى نردوا إلى خير الوارثين ، ثم أنتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، عبياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدم ، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي ، فاستغفر الله لي ولكم ، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ويحمي الدين بليدي حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، وأيم الله أن لو أردت غير هذا من عيش أو عمارة لكان اللسان مني ناطقا بذلك لا عالما بسنته ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته

ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ، ثم نزل فلم ير على ذلك الأعواد حتى قبضه الله .

الخطبة البتراء لزياد بن أبيه :

أما بعدُ ، فإنّ الحيالة الحلاء ، والصلالة العمياء ، والعيّ [1] ، السوفي [2] بأهله على النّار ، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبتُ فيه الصعرُ ولا يتحاشى عنها الكبيرُ . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب [3] الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته [4] في الزمن السرمدي [5] الذي لا يزول .

أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا [6] وسدّت مسامعه الشهواتُ ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركِكم الضعيف يُقهرُ ويؤخذُ ماله .

ما هذه المواخيرُ [7] المنصوبةُ والضعيفةُ المسلوبةُ في النهار المبصر ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نهاة [8] تمنعُ الغواة [9] عن دلج الليل [10] وغارة النّهار ؟! قرّبتمُ القرابةَ وباعدتمُ الدين . تعتذرون بغير العذر وتغضّون على المختلس . كل امرئ منكم يدبُّ [11] عن سفيهه ، صديع من

١- العي الصلال
٢- السوفي المشرف
٣- الثواب الجزاء على اعمال الخير
٤- المعصية الزلة
٥- السرمدي الزلي الأبدي
٦- طرفت عينيه الدنيا صمحت عيناه الى الدنيا ورحرقها فصعد بها عن الآخرة
٧- المواخير بيوت الريبة
٨- النهاة الزاجرون ، المانعون
٩- الغواة المضلون
١٠- دلج الليل السير فيه
١١- يدبّ يمشي

لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً [1] ما أنت بالحلماء ولقد اتعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً من مكانس الريب [2] .

حرامٌ عليّ الطعامُ والشرابُ حتى أسوّيها بالأرض هدما وإحراقا ! إني رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُح به أوّله : لينٌ في غير ضعف، وشدةٌ في غير عنف. وإني أقسم بالله لأحذنّ الوليّ بالمولي [3] ، والمقيمَ بالظاعن [4] ، والمقبل بالمدبر [5] ، والمطيعَ بالعاصي ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجلُ منكم أخاه فيقول : " انجُ سعد ، فقد هلك سُعيد ، أو [6] تستقيم قناتكم .

إن كدية الأمير بلقاءُ مشهورةٌ ، فإذا تعلقتم عليّ بكدية حلُلتُ لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها فاغتموزها فيّ ، واعلموا أن عندي أمثالها . من نُفِّس منكم عليه [7] فأنا ضامنٌ لما ذهب منه . وإياي وملح الليل فإني لا أوتى بمُملح إلا سفكتُ دمه .وقد أحلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبرُ الكوفة ويرجعُ إليكم . وإياي ودعوى الجاهلية [8] ، فإني لا أحد أحداً دعا بها إلا قطعتُ لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن نقّب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش

١- المعاد الآخرة
٢- الكنوس المختبون المكانس الملاحي ، وتكون للوحوش تحتمي ، فيها الريب التهم
٣- الوالي السيد المولى العبد
٤- الظاعن المسافر
٥- المدبر الذاهب
٦- أو ناصبة لأنها أتت بمعنى إلى أن
٧- نفس عليه سرقت ماله
٨- دعوى الجاهلية دعوى العصبية والفرق

فرا دفاه فيه حيا ! فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدي ولساني . ولا تظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني أقوام إحن [1] فجعلت تلك دبر [2] أذني وتحت قدمي . فمن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته .إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك [3] له سترا ، حتى يبدي لي صفحته [4] فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم . فرب متنفس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم سلطان الله الذي أعطانا ، وندود عنكم بفيء [5] الله الذي حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا زرقا عن إبانة [6] ، ولا مجمرا [7] لكم بعثا .

وأيم الله ، إن لي فيكم لصرعي كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاتي .

1- لاحن الأحقد
2- ظهر خلف
3- اهتك الثوب
4- يبدي لي صفحته يكشفني
5- فيء غنيمة
6- زلة خطيئة
7- مجمر من المعودة لي هيبة

زياد بن أبيه

٦٧٢ م و ٥٣ هـ

حياته .

لما كان زياد غير شرعي الوالد فقد تعددت أسماء والده . فهو زياد ابن أبيه وهو ابن سمية وابن أبي سفيان وابن عُبَيد ولد بالطائف بين السنة الأولى والثامنة للهجرة . وأمه جارية للحرث الثقفي تدعى سميَّة .

عرف زياد منذ حداثته بمرايا لا تظهر عادة إلا في الرجال . منها النجابة والفصاحة ومنها الحزم والشدة والدهاء . فما كاد يشب عن الطوق حتى استكتبه أبو موسى الأشعري . وهو على البصرة من قِبَل عمر بن الخطاب. فاستتد بإعجاب الناس وإذا بعمر يوكل إليه إحدى المهام فقام بها على أحسن وجه . وعند رجوعه دخل على عمر . وفي حضرته قوم من المهاجرين والأنصار بينهم عمرو بن العاص وأبو سفيان والد معاوية . وألقى خطبة هزَّ بفصاحتها قلوب الحاضرين. فقال عمرو " لله در هذا الغلام . لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه . فقال أبو سفيان إني أعرف أباه . فقال عمر من هو ؟ قال أنا هو وإلى هذا القول استند معاوية حين استلحق زياداً بأبيه

ولما استخلف علي بن أبي طالب ولّى زياداً على فارس فساسها بدقة وحزم ولكن ذلك لم يرق لمعاوية فكتب إلى زياد يعنفه ويعرّض به . فردّ عليه زياد بلهجة أشدّ عنفاً وقسوة . فلما بلغ الأمر عليا كتب إلى زياد يطري عليه ويحذره من معاوية

وما كاد يقتل عليٌّ حتى استمال معاوية زياداً إليه واستلحقه بنسبة ثم ولاه البصرة وأعمالها . وعندما مات المغيرة بن شعبة أمير الكوفة وألقى في مسجدها أولى خطبة خطبه الناس . فأمر بإقفال الأبواب والقبض على المستوهبين وقطع أيديهم

وكان زياد على وشك أن يتولى أمور الحجاز عندما أصيب بالطاعون فقضي عليه . وكان ذلك سنة ٦١٣ م و ٥٣ هـ

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب لما طعنه مؤنبه " أدهشني سعنة . لا الآخرة أدركت ، ولا الدنيا بقيت عليك "

المناسبة :

كانت النصرة في أيام معاوية مركزاً لاستقبال المعارضة ، وحلقة لمختلف العصبيات يؤلف الخوارج والندو المتعصبون لتقاليدهم القبلية معظم سكانها . لذلك كان يسودها تياران تيار النزاع المستمر والفساد والاضطراب ، وتيار التماسك ضد الأمويين .

وكان على معاوية أن يقف بوجه المدينة الثائرة فلم ير خيراً من زياد يرميها به وهو العليم بإخماد الفتن والخروج من المأزق

دخل زياد النصرة والياً عليها وهمه ضبط أمورها وإخضاعها للحكم الأموي. وما كاد يستقر به المكان حتى جمع الناس في مسجدها وألقى بين أيديهم خطبته البتراء التي لم يبدأها بالحمدلة أو البسملة أو التصلية . ومن ثم أخذ يطبق الشرائع التي سنها ، يسير وبين يديه الحراب والعمد . ولكثرة ما عنف في حكمه وقسا ، هابه الجميع وخضعت له الأحزاب واستتب الأمن

قيل أن أعداء زياد هم الذين أطلقوا على خطبته أسم البتراء ليشنعوا عليه . ولكن تلك التسمية لم تخفض من قيمتها وقيل أيضاً إنما سميت البتراء لأنها كالسيف القاطع .

المحتوى :

أوضح ما في الفقرات أقسام أربعة هي التالية -

١ **حالة البصريين :** لقد حمحمت بهم المساوئ والشرور . فالجهل والضلال والعمى من بضاعة سفائنهم وحلمائهم على السواء . ربي عليها الصغار وفي ركابها سار الكبار . أتراهم جهلوا الإسلام وتناسوا تعاليم القرآن وأغمضوا عيونهم عما أعد الله من ثواب للمتقين وعذاب للفاسقين في الحياة الباقية ؟

أما استطاعة من دانوا بالإسلام أن يجعلوا طريقهم محفوفة بالآثام والفواحش ؟ هل صرفوا بالعمى فحجبت عن عيونهم الفضائل . أم صعب منهم الادلاء فليس في أدانهم غير صحيح الشهادات ؟

ما أعجب أمر أهل البصرة . يعلون شأن الدنيا الزائلة ويحقرون قيمة الآخرة الدائمة . هم دعاة المعاصي في الإسلام . فالضعيف على أيديهم يقهر ، والصعيفة تسلب في وضح النهار وليس بينهم من ينهى عن منكر أو يدفع عن غواية .

إنكم يا أهالي البصرة خارجون على تقاليد الدين . وأعمالكم غير مقبولة . تشيحون بأبصاركم عن الفحشاء . وتتعهدون السفهاء بالعناية . كأنكم لم تخشوا عقاباً ولم تأملوا معاداً . لقد فسحتم المجال للأشرار فتمادوا في شرّهم وانتهكوا حرمة الإسلام وتستروا في أقنية الريب ومحابئ الفجور

٢ **موقف زياد من هذه الحالة :** يخطط زياد في هذا القسم من خطبته لسياسية إصلاح عامة . عمادها " اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف " بهذه السياسة قضى قبله عمر ابن الخطاب على مفاسد الجاهليين . وبها سيقضي زياد على مساوئ البصريين

هو يحرّم على نفسه الطعام والشراب إلى أن يسوي الحفرة بالأرض هدما وإحراقا وفي سبيل الوصول الى غايته يقسم أن يأخذ الذلي بالمولي . والمقيم بالظاعن . والمطلع بالعاصي . والصحيح بالسقيم . حتى يصبح الناس من هول ما يلاقون ويجلدون إلى السكينة

إن في هذا القول خير دليل على تفهم زياد لعمق المسؤولية . والإحاطة بالتبعات الملقاة على كواهل الجماعة فهو يعلم أن وراء الخارجين على القوانين ومرتكبي الآثام أصابع تحرك الغش في الخفاء وتعمل في الظلام . ثم يتلمس أصحابها البراءة ويدّعون المسالمة

ويسير زياد في بسط تشريعه القائم على الشدة . فيتعهد بتنفيذ ما يعد به . وبتطبيق ما يعلن من نظام عرفي يتعلق بالسرقة ودلج الليل ودعوى الجاهلية " فمن نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله . وإياي ودلج الليل . فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وإياي ودعوى الجاهلية . فإني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه "

ويجعل لكل دسّ عقوبة . " فمن أعرق قوماً اعرقناه . ومن أحرق قريما أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه . ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً " .

تمثل هذه اللغة يدعو زياد الناس إلى أن يكفوا عنه أيديهم وألسنتهم . وإلا كان عقاب كل زينة ضرب العنق .

لقد كان بينه وبين بعض البصريين عداوات سابقة . ولكنه لن يحرّك رمادها ويتخذ منها سبيلا إلى القسوة والتشفي . وإنما سيترك لهؤلاء مجال العودة إلى حياة العمل والمسالمة حيث سيسود العدل والنظام " فاستأنفوا أموركم . وأعينوا على أنفسكم . فرب منتظر لقدومنا سيئس . ومسرور بقدومنا سيبتئس "

٣. **شرعية الخلافة الأموية والإذعان لها :** بعد أن حقق زياد غايته في القسمين السابقين من ضبط أمور البصرة ، ينتقل هنا إلى إخضاع البصريين للحكم الأموي معلناً نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الراعي والرعية . وأول ما يريد تثبيته في الآذان هو ما للأمويين من حق إلهي في سلطتهم ، فهم أصبحوا للناس ساسة وعنهم ذادة، يسوسونهم بسلطان الله الذي منحهم إياه ، فهم خلفاؤه على الأرض. فعلى الناس إذن أن يسمعوا ويطيعوا ، وعلى الحكام أن يعدلوا . إنها شراكة بين الحاكم والمحكوم قائمة على التناصح والتعاون .

ثم يعلن زياد أنه لن يقصر عن ثلاث : قضاء حاجاتهم ولو أتوه تحت ستر الظلام ، إعطاؤهم الرزق في حينه ، عدم حبس الجنود في أرض الأعداء .

٤. **الخاتمة :** وينهي زياد خطبته بقسم صاعق يدعو به الناس إلى احترام القانون وإلا كان له بينهم صرعى كثيرون .

الدراسة الأدبية :

أول ما يجبه به زياد البصريين في الخطبة الدتراء عرضه لما ينبغون لأنفسهم من عصيان قام على المنكر والفساد . ثم تعدي نطاق البيئة بأحكامه حين سن للعقوبات قانوناً لم يألفوه .

وبعد ذلك ينفي إضمار الحقد لأي كان من أعدائه أو معضيه . فيدعوهم إلى استئناف العمل ويعدهم بإقامة العدل .

وفي النهاية ينصحهم بالخضوع للأمويين الذين استمدوا من الله سلطانهم.وإذا به يأبى إلا أن يكون الختام صاعقاً مدوياً .

لقد نزلت هذه الخطبة على البصريين لا هبة محلحلة فأرهبتهم وبركتهم مدهولين واجمين . فالتهديد فيها صارخ . والوعيد مخيف ولئن قال قائل عند سماعها " أنأنا الله بغير ما قلت . احابه زياد " إنا لا نقلع المراد منك ومن صاحبك حتى نحوص إليكما الداصل حوصا " ولقد حقق تهديده ووعيده فكان رهيباً في تطبيق أحكامه .

إن عبرات الخطبة . من حيث العمل الصناعي . كثيرة أدوارها الدلاغة . وما يتحدر عنها من جلاء المعاني . وايحاز الالفاظ . وتنسيق في متكامل

هو يبدو مرشداً يضع البصريين أمام دسيسهم . ويحرك روح الدين في صدورهم. فيذكرهم بالعقاب والثواب .

ثم يبدو مشترعاً يضع عقوبات جديدة لمفاسد غير مألوفة . وهذه العقوبات ستنفذ بدقة وحزم . حتى إنه يجعل لهم معصيته إن هو تساهلاً في التنفيذ أو أخذ عليه شيء من الكد

والظاهر أن العرب في مطلع الإسلام طلبوا متعلقين بجاهليتهم لكثرة ما فرض عليهم الدين الجديد من نظم لم يتعودوها لذلك يسألهم زياد أن يتمثلوا به والا صرب منهم الأعناق .

وبعد ذلك يبدو حكيماً عادلاً يترفع عن الضغائن والأحقاد ويتنزه عن الحرارات والميول الشخصية .

ويبدو أخيراً سياسياً داهية . تمرس بالتجارب . فيعلي شأن الأمويين . ويفضلهم على سواهم من الحكام . سائلاً البصريين الانقياد لهم . فتقصي جاحاتهم . وينالون رزقهم في وقته . ويطلق سراح الجيش فلا يحبس في أرض العدو

وكأني بزياد أراد أن يكون النغم الأخير داوياً ليطل صدى التهديد هادراً في الآذان . فختم خطبته بهذه الجملة الصاعقة التي قفز إليها قفزاً " إن لي فيكم لصرعى كثيرة . فليحذر كل امرىء أن يكون من صرعاي ".

لقد اعتمد زياد الأسلوب الخطابي بما فيه من بناء ووضوح وإقناع وتأثير .

وهو في مقدمته وتدرجه إلى الموضوع ، واستخلاص النتائج ، يقيم خطبته على الفكر المجرد والتقسيم المنطقي والأدلة الدينية .

وقد يعود ما في خطبة زياد من إرعاد وإراقة دماء إلى تأثره بعمر . ولكنه تجاوز لين الخليفة الراشدي الذي دعا الناس إلى إصلاحه أن رأوا فيه إعوجاجاً . وكاد يصعق أحد منتقديه .

نستنتج من ذلك أن التشابه بين الخطيبين ، هو في الصلابة لا في الإسراف في العقاب

ومتى عرفنا أن الخطابة الإسلامية عامة وخطابة زياد خاصة تأثرت بواقع السياسة الأموية وقد هددت بالتداعي ، لم تنكر عليها العنف والقسوة

ولشدة إنفعال زياد رأينا التناقض من مزايا خطبته . فبعد أن أعلن في مستهلها إتباع سنة اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف . نراه ينسى خطبته وينقض على سامعيه بالويل " فيسوي البصرة بالأرض هدما وإحراقاً. ويقسم بالله ليأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي ."

ويريد أن يعلم الناس أن تهديده ليس من قبيل الإيهام فهم في حل من طاعته أن لم يصدق فيما وعد به " فيستغرق من أغرق . ويحرق من أحرق وسيدفنهم أحياء ".

ومن البراهين على شدة تماسك الفكر عند زياد عدم استعانه بالحكم المتفرقة شأن الجاهلين على أن البتراء وإن كانت حلوا من الآيات القرآنية فهي لم تحل من النفحة الدينية يثير الحفاظ ملامحها في تضاعيف السطور بطريقة غير مباشرة

وزياد شديد التخير لألفاظه ومعانيه وعبوته . يحسن المزاج بين الإيجاز والبطء . يتلاعب بأساليب الإنشاء فمن تقديم إلى تأخير إلى تأكيد أو قسم . يدعم بكل ذلك فكرته ويولد بناء جملته

وفي البتراء تجلى شخصية زياد القوية . فهو المثل للبيت الأموي . العارف بأحوال الديمة . الخبير بالسياسة والحكم . يرفده ذكاء وقاد ومعرفة عميقة بطبائع الجماهير .

وفيها مظهر للفتن التي هزت عصر بني أمية ، ولتكاثر الأحزاب والفرق . ولاهتمام الأمويين بما آلت إليه البلاد من اضطراب كان عليهم أن يجمدوه لتوطيد سلطانهم

قال التعالبي " ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلاماً ".

وقال الحسن البصري " أوعد عمر فعفا ، وأوعد زياد فاتقى ".

ولا عجب أن يقال في زياد مثل هذا القول وهو الذي صح فيه قول أن العاص فساق الناس بعصاه

ملامح تطور وازدهار الأدب في العصر العباسي

مهما يكن من أمر التغيير الذي أصاب الحياة في العصر العباسي . فقد ظلت اللغة العربية أداة التعبير ووسيلة القول الفني . على الرغم مما أتاحته ذلك العصر للناس من ثقافات جديدة متنوعة . وتيارات حيوية مختلفة . إلا أن أداة التعبير في ذلك كله كان باللغة العربية بكل ما فيها من إمكانيات وطاقات تعبيرية.

ولما كان الأديب لسان قومه وعصره كان طبيعياً . أن يكون هناك صراع بين التقاليد الفنية الموروثة وبين ثقافة وذوق المجتمع الجديد . لكنه مع مرور الوقت بدأ التيار الجديد يفرض نفسه ويؤكد جدته . ونفذ الشعراء العباسيون من خلاله إلى استحداث أسلوب جديد عرف باسم أسلوب المولدين اعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة .

وبعبارة أخرى أسلوب يجمع بين مادة اللغة بمقوماتها النحوية والصرفية الملائمة بينها وبين الحياة الحضرية المترفة في العصر العباسي. من حيث القدرة على تخير البعيد عن الغرابة والوحشية . وعن العامية المبتذلة . وبدأت الأساليب ذات سمة خاصة تشق عن ذلك المزيج من القديم الفصيح والذوق العصري الجديد.

وقد كان بشار أحد الأوائل الذين استخدموا هذا الأسلوب . وأرسوا قواعده وسار على نهجه شعراء كثيرون أمثال البحتري وأبو تمام الذي رد ذلك الأسلوب

إلى قوة السبك وضخامة البناء ، وكذلك ابن الرومي ، والذي يقول فيه بن خلكان : " والشاعر المشهور صاحب التعلم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك الفن حتى يستوفيه إلى أخره ولا يبقي فيه بقية "

ويظهر صاحب كتاب العمدة منهج الشعراء في العصر العباسي بقوله " ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وحشونته كابن الرومي ، وأبي الطيب ومن شاكلهما هؤلاء المطبوعون .

كما لعبت الثقافة اليونانية والفارسية دوراً كبيراً في التركيبة الثقافية لبعض الشعراء تمثلت في التشخيص الذي يشبه توليد الأساطير واختراع الأرباب والربات لكل قوة من قوى الطبيعة عند اليونان ، وكذلك المعاني النادرة والأخيلة المبتكرة ، كأن يصور بعض الشعراء المعاني المجردة أرواحاً ينسب إليها ما ينسب إلى الأحياء من الأعمال والأقوال ، ومن ذلك قول ابن الرومي ساخراً من العوسج كأنه إنسان .

غذرنا النخل في إبداء شوك
يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدي
لنا شوكاً بلا ثمر نراه
تراه ظن فيه جنى كريماً
فأظهر عدة تحمي حماه

فـــلا يتســـلح لـــدفع كـــف

كفـــاه لـــؤم مجنـــاه كفـــاه

ولما كان من ملامح العصر الثقافية ، دراسة الفلسفة والمنطق ومذاكرة علم الكلام ، والعلوم المترجمة ، فقد كان لزاماً أن ينشأ الشعراء أو بعضهم على نصيب من تلك العلوم في شعرهم ، بحيث لا يلم المتصفح ببعضه إلا حزم باطلاع قائله على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها ، حتى سرت في أسلوبه وتفكيره

والجدير بالذكر أن مثل هذه الأشياء بعد ملمحاً واضحاً في الشعر العباسي ، لم يكن موجوداً من قبل ، بل كانت نتيجة حتمية لانتشار الثقافات المختلفة بصورة أثرت تأثيراً حدياً في الشعر والشعراء بالإضافة الى أغراض الشعر الأخرى والتي سيأتي بيانها

كما أن الشعراء بجانب ما جددوه في الأسلوب إلا أنهم ظلوا يتكلمون في الموضوعات القديمة مثل المدح والرثاء والهجاء والغزل والوصف والمجون والزهد وظلت تلك المجالات قائمة وإن كانوا قد توسعوا في بعضها مثل المدح والمجون والزهد واستجابة للأوضاع والمتغيرات التي طرأت على العصر العباسي .

أبو العتاهية وأثره في الزهد :

ترجمته :

هو : أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان وينتهي نسبه إلى عنزة بالولاء من قبل ابنه ، وهي امرأة من قبل أمه التي كانت مولاة لهم

وأبو العتاهية كنيته ، ولقب بها بعد أن دعاه المهدي بها يوماً وعتاهية يقال للرجل المتحدلق . وقد روى الاصفهاني أن المهدي قال له يوماً أنت متحدلق متعته فاستولت له من ذلك كنية علت عليه دوناسمه وسارت في الناس [1]

ويقال أنه لقب بذلك الاضطراب كان عنه وقيل لأنه كان يحب الحلاعة والمجون والتعته.

وقد ولد عام ١٣٠هجرية في بلدة تعرف بعين - التمر وهي كما يقول ابن حلكان من أعمال سقي الفرات بالعراق ، وقد نشأ في الكوفة . والكوفة وعين التمر كلتاهما من سقي الفرات .

وقد أجمعت كتب الأدب أنه نشأ نشأة وضيعة فاسدة . فكانت أمه مولاة وأبوه بائع جرار أو كان حجاما . إلا أن أبا العتاهية لم يعبأ بهذا الأصل وظهرت في شعره إشارات إلى فضل العلم والتقوى على النسب والأصل امتثالاً لقول الله عز

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ [2].

١- الاغاني جـ ٤ ص ٢

٢- سورة الحجرات من الآية ١٣

ومن ذلك قوله :

ألا إنما التقوى هي العـزم والكـرم

وحبـك للـدنيا هـي الفقـر والعـدم

ولـيس علـى عبـد تقـي نقيصـه

إذا صـح التقوى وإن حاك أو حجم[1]

وقـد نشـأ الشـاعر في الكوفـة - كمـا أشـرنا - وأحـد يحـتلط بالبيئـات المختلفـة، والـتي كانـت سمـة مـن سمـات العصـر العباسـي . فـاحتلط بالمجـان مـن الشـعراء، وأختلـف إلى حلقـات العلمـاء والوعـاظ في المسـاجد . ممـا كـان سـبباً في إبقائـه اللغـة العربية والتعرف إلى مذاهب أصحاب الكلام .

كمـا توثقـت الصـلة بينـه وبـين إبـراهيم الموصـلي المغـني . وتعاهـدا علـى أن ينـزلا بغـداد ليروجـا بضـاعتهما - الشـعر والغنـاء - ففتحـت الأبـواب أمـام إبـراهيم الموصـلي بينمـا أوصـدت دون أبـي العتاهيـة . فقـرر العـودة إلى الكوفـة. ولمـا فتحـت الـدنيا علـى الموصـلي في خلافـة المهـدي دعـاه إبـراهيم وأرسـل في طلبـه ليقدمـه إلى الخليفـة . فـذهب إليـه أبـو العتاهيـة . وأعجـب الخليفـة بشـعره وقربـه إليـه وأغـدق عليـه بالعطايا والمنح.

وتمـر الأيـام ويرحـل المهـدي ويخلفـه الهـادي . فيلزمـه أبـو العتاهيـة ينشـده ويمدحـه في كـل مناسـبة فينـال منـه المنح والجـوائز . ويستمر على هذا الحال مع ابنه الرشـيد حينمـا ولـي الخلافـة وأصـبح لا يفارقـه في سـفر ولا حضـر . وكـان يجـري عليـه خمسـين ألـف درهـم في السـنة بالإضـافة إلى مـا كـان يحصـله مـن جـوائز وصـلات مـن كبار رجال الدولة

١- الأغاني جـ ٤ صـ ٥

وقد امتنع في هذه الفترة عن قول الغزل والهجاء والمدح لغير الخليفة مما كان سبباً في إيذائه وسجنه . ولعل ذلك بداية زهده . إذ انه ما لبث حتى أخذ في قول الزهد والإكثار من الدعوة إلى الحكم . وقد اتهم في عقيدته " . لكنه يرد على ذلك بقوله " زعم الناس أني زنديق والله ما ديني إلا التوحيد . فقلنا له فقل شيئاً نتحدث به عنك أي من الشعر - فقال

ألا إنني كنت بائد
وأي بني آدم خالد .
وبدؤهم كان من ربهم
وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ولعل الظروف السياسية والصراعات الحزبية كانت وراء مثل هذه التهم التي كانت تلقى على بعض الشعراء . ممن كانوا يتناولون هذه المثالب بالنقد والتوجيه والثورة على المفاسد التي كانت منتشرة آنذاك لكن الناظر في شعر أبي العتاهية لا يجد هذه التهمة أي الزندقة أو أي أثر لنظر زنديق في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين .

شعره ومكانته الأدبية :

يعد أبا العتاهية من الشعراء المطبوعين في العصر العباسي . فقال صاحب الأغاني أطبع الناس بشار وأبو العتاهية . وقال ابن الأعرابي وقد آتاه رجل رمى أبا العتاهية بالضعف فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على نظم منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر .

ونظراً لكثرة الشعراء في العصر العباسي . وشدة التنافس بينهم إلا أنه استطاع أن يشق طريقه بين الحاسدين والواشين . وأن يجعل لنفسه مكانة عالية وعرف بشعره وفنه طريق القصور والقلوب .

وهذه المكانة تعليلنا بأن أبا العتاهية كان شاعراً مطبوعاً وكان شعره لطيف المعاني سهل الألفاظ بليغ التراكيب . قليل التكلف . وهذا ما أكده المبرد بقوله : أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ لشعره رياحة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا [1] .

وقد سئل كيف تقول الشعر قال ما اردته قط إلا منل لي . فأقول ما اريد وأترك ملا أريد .

ويؤكد الجاحظ هذه الحقيقة حين سمع من ينشد قول أبي العتاهية :

يا للشباب المرح المتصابي

روائح الجنة في الشباب

فيقول للمنشد كف أنظر إلى قوله " روائح الجنة في الشباب " فإن له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة

١- انظر الكامل ج١ ص ٢٣٩

إلا بعد التحليل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه

وهذه الأقوال وتلك الشهادات . مع من وجود بعض العثرات والسقطات مع اقتداره وتمكنه من فرص الشعر وسهولته عليه . لكن هذه العثرات لا تخرجه من إمارة الشعر في العصر العباسي ولا تقلل من شأنه ولا من مكانته بين الشعراء المطبوعين الذين كانوا يتمتعون بعبارة السهل وقربه وبعبيره عن الأحاسيس والمشاعر وكلما كان الشاعر صادقاً في فنه مخلصاً له . كان فنه هذا خالداً بخلود الفن الأصيل

زهده :

يكاد يجمع المؤرخون والباحثون على أن أبا العتاهية قد ختم حياته بالزهد وطل نحو ثلاثين عاماً يتغنى بالموت والزهد في الدنيا والابتعاد عما فيها من زخرف وبهجة وفتنة . وحاول الاقتراب من الآخرة . فكثرت في شعره العظات والتذكرة بالموت في صفحات فنية رائعة تشيع في جنباتها الفلسفة الروحية العميقة القائمة على المعاني الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

ولعل الذي دفعه إلى هذا الاتجاه الشعري وتركه ما كان عليه الشعراء هو تأثير العصر الذي جمع بين المتناقضات ؛ حياة اللهو والشراب والرقص والغناء والعزل . وحياة الزهد والتقوى والخشوع . فهذه العوامل أسهمت في تكوين نزعة الزهد عنده . فترك العزل والمقدمة واحتط لنفسه أسلوباً آخر واتجاهاً يخالف ما كان عليه الشعراء آنذاك .

كما يرجع هذا التحول الشعري عند أبي العتاهية إلى أنه كان يحس بالضعة والحرمان والنقص ؛ فقد نشأ محروماً فقيراً من سدة وضيعة يعير عائلها بعمله كحجام في الوقت الذي أحب فيه الشاعر الدنيا وأقبل عليها وكلف بها لكنه لم يجد من تصدو إليه نفسه ، فولد إحساسه بالحرمان في نفسه النقمة على الدنيا ، ولم يلبث أن بالغ في ذمها وتحقيرها ، ودم الحرص عليها والتكالب على مباهجها وزينتها .

هذا بالإضافة إلى أن عصر الشاعر أسهم في هذا التحول إذ إنه كان من أحفل العصور الإسلامية بالزهد والرهاد ولم يبرق إلى درجة الرقي والازدهار واعتباره اتجاهاً شعرياً إلا في العصر العباسي ، فقد استغرق بعض الشعراء في الذات العلية وحاولوا التجرد من كل ما سواه من عرض المادة والحس واللجوء إلى الحب الخالص لله والاقتراب من اليوم الآخر ، وكان أبو العتاهية أحد هؤلاء الشعراء من أمثال : ذو النون المصري وعمر بن الفارض ، وأبو يزيد البسطامي والحسين بن منصور الحلاج ، إلى غير ذلك من الشعراء ممن اشتهروا بهذا الاتجاه .

وإذا سلمنا بأن الزهد قد ظهر في شكل ثورة نفسية من الشاعر على ماضية وحنقه على الدنيا فلم لا نقول أنه بالإضافة إلى ذلك ، يعتبر صدى لثورة أوسع انبعثت من الجانب المتدين في المجتمع العباسي ، والذي يعد بمثابة اتجاه مضاد لاتجاه الخلاعة والفجور ، والتباين الكبير بين الطبقات في الغنى والفقر ، لذا نلمح في أشعاره توبيخا وتسفيها للأغنياء ، وحضاً لهم على التخلي عن لذائذ الدنيا الفانية .

في مثل قوله :

يا من بني القصر في الدنيا وشـيده

أسست قصرك حيث السـيل والغـرق

لا تغلفـــن فـــإن الـــدار فانيـــة

وشربها غصـــص أو صـــفوها رنـــق

والموت حوض كريـــة أنـــت وارده

فانظر لنفسك قبل المـــوت يـــا مـــذق

وأشـعاره في هـذا الاتجـاه كمـا نـرى تمتـاز بالسـهولة واليسـر . وتـدل علـى صـدق عاطفته ورهافة حسه .

وفـاته :

وافتـه المنيـة وانتقـل إلى الـدار الـتي طالمـا تغـني في أشـعاره بهـا والانتقـال إليهـا سـنة عشـر أو إحـدى عشـرة ومـائتين مـن الهجـرة ، ودفـن ببغـداد . عـن عمـر ينـاهز التسـعين عامـا ، كمـا يبـدو مـن هـذه الأبيـات الـتي أوصـي أنْ تكتـب علـى قـبره . والـتي يقول فيها :

أذن حـــــي تســـــمعي اسمعي ، ثم عـــي ، وعـــي

أنـــا ، رهـــن بمضـــجعي فاحـــذري مثـــل مصـــرعي

عشـــت تســـعين حجـــة أســـــلمتني لمضـــــجعي

لـــيس زاد ســـوى التقـــي فخـــذي منـــه ، أو دعـــي

نماذج من شعره :

قال في التضرع إلى الله والندم على ما اقترف من ذنوب

إلهـــــي لا تعـــــذبني فـــــإني

مقـــر بالـــذي قـــد كـــان منـــي

ومـــــالي حيلـــــة إلا رجـــــائي

وعفـــوك إن عفـــوت وحســـن ظنـــي

فكم مـــن زلـــة لـــي فـــي البرايـــا

وأنـــت علـــيّ ذو فضـــل ومـــن

إذا فكـــرت فـــي قـــدمي عليهـــا

عضضـــت أنـــاملي وقرعـــت ســـني

يظـــن النـــاس بـــي خيـــراً وإنـــي

لشـــر النـــاس إن لـــم تعـــف عنـــي

ويقول في الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها إلا بقدر ما يعين المرء على الحياة . وأنه لن يأخذ من الدنيا . إلا على قدر حاجته مهما تلعب أمانيه وأطماعه ولن يبقى له إلا ما قدمه خالصا لوجه الله

جمعت من الـدنيا وحـزت ومنيتـا

ومالـك إلا مـا وهبـت وامضـيتا.

ومالك مما يأكل النـاس غيـر مـا

أكلت مـن المـال الحـلال فأفنيتـا .

ومالـــك عـــن شـــيء جعلتـــه

أمامـــك إلا شـــيء لغيـــرك أبقيتـــا

ومالك مما يلبس النـاس غيـر مـا

كســـوت وإلا مـــا لبســـت فأبليتـــا.

وهـو بهـذا القـول يتمثـل القـول المـأثور: لـيس لـك مـن مالـك إلا مـا أكلـت فأفنيت وما لبست فأبليت وتصدقت فأبقيت.

obeikandl.com

قصيدة أبي العتاهية في مخاطبة الدنيا وذمها

١. قطعـت منـك حبائـل الآمـال
وحططت عن ظبر المطي رحـالي
٢. وينست أن أبقي لشيء نلت معـا
فيـك يـا دنيـا ، وأن يبقـي لـي
٣. فوجدت برد اليأس بين جـوانحي
وأرحت من حلـي ومـن ترحـالي
٤. ولئن يئست لـربّ برقـة خلـب
برقـت لـذي طمـع ، وبرقـة ال
٥. ما كان أشأم إذ رجـاؤك قـاتلي
وبنـات وعـدك يعـتجلن ببـالي
٦. فالآن يا دنيـا عرفتـك فـاذهبي
يـا دار كـل تشـتت وزوال
٧. والآن صار لي الزمـان مؤدبـاً
فغـدا علـيّ ، وراح بالأمثـال
٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغـت هممـي عـن الأشـغال
٩. ولقد أقام لـي المشـيب نعاتـه
يفضـى إلـى بمعـرق وقـذال
١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سـيفه
بيـد المنيـة حيـث كنـت حيـالي

١١. ولقد رأيت غر الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي
١٢. ولقد رأيت على الفتى ثلثة
فيما تنكر من تصرف حالي
١٣. وإذا اعتبرت رب حصن حوادث
يحرين بالأرزاق والآجال
١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أري
نسبا يقاس بصالح الأعمال
١٥. وإذا حبتك عن التقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال
١٦. وإذا اتقي الله أمرؤ وأطاعه
فيداه بين مكارم وفعال
١٧. وعلى التقي إذا ترسخ في التقي
تاجان ، تاج سكينة وجلال

وهي قصيدة طويلة تفيض بالانفعال الصادق والعزم القوي على الطريق الذي أدت إليه فلسفته في الحياة بعد أن حرمها وبلاها وتأملها واكتوى بنار شرورها . وذاق فيها طعم الحرمان والشقاء . فأطال التأمل . وأمعن في النظر فدقق الإمعان ، ثم وصل إلى النتيجة القوية الواضحة التي وثق بها .

وتكاد تكون هذه القصيدة أنموذجا متكاملاً لشعره في الزهد . إذ إنها جامعة لأهم خصائصه الفنية في هذا الاتجاه . كما أنها تشتمل على الكثير من أسباب فلسفته وزهده . وسنتعرض لهذا الجزء من هذه القصيدة بالشرح والتحليل لنقف على ملامح الزهد عند الشاعر

الشرح والتحليل :

- حقيقة الدنيا والبعد عنها :

يقول أبو العتاهية مخاطباً الدنيا

١. قطعت منـك حبائـل الآمـال
وحطط عن طهر المطي رحـالي

٢. وينست أن أبقي لشيء نلت مما
فيك يـا دنيـا ، وأن يبقـي لـي

٣. فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومـن ترحـالي

٤. ولئن يئست لربّ برقـة خلـب
برقت لـذي طمـع ، وبرقـة آل

٥. ما كان أشأم إذا رجاؤك قـاتلي
وبنـات وعـدك يعـتجلن بنـالي

اللغـة :

١. **حبائل** : جمع حبالة وهي شرك الصائد .
المطي : جمع مطية من المطاء **وهو** : الظهر
ويطلق لفظ مطية على الذكر والأنثى .
والرحال جمع رحل وهو : ما يعد للرحيل من المتاع

٢. **اليأس** : القنوط وعدم الرجاء

obeikandl.com

الدنيا : نقيض الآخرة وهي أنثى الأدنى وسميت الدنيا لدنوها . ولأنها دنت وتأخرت الآخرة وكذلك سميت السماء الدنيا لقربها إلينا.

٣. **البرد** : ضد الحر . **والبرودة نقيض الحرارة** . والمراد الهدوء والسكينة والفتور.

الحوائج : جمع حاجة وهي الأصلاع التي تحت الترائب والمراد ما تحتويه وهو القلب

الحل : الإقامة . الترحال السفر .

٤. **رب هنا تعني** : التكثير

وبرقه الظنب : لمعة البرق التي لا تعقب مطراً .

الآل : السراب .

٥. **اشأم** : من الشؤم وهو التطير والشر.

بنات الوعد : كناية عن الآمال الزائفة الخادعة

يعتجلن : يسرعن .

المعنى :

يبدأ الشاعر قصيدته بجملة من الحقائق تتمثل في الكشف عن حقيقة الدنيا ومحاولة البعد عنها ، وعدم التعلق بها ، والحري وراء ما فيه من آمال زائفة وغرور يضلل صاحبة . لذا فإنه لم يعد له طمع في زخارفها الزائلة وزينتها المغرية الخادعة . ولم الطمع والتعلق بها وبرقها لا يخلف وسرابها دائم الخداع . وبخاصة وقد طل طوال الماضي من عمره متعلقاً بها مخدوعاً بسرابها ، مفتونا بزينتها وبهرجها مقتولا برخائه منها ، مشغولا بآماله فيها فما وجد غير السراب . والهباء المنثور .

والشاعر بذلك يقرر تلك الحقيقة وهي أن الدنيا متاع الغرور وحياة فانية من تعلق بها وانشغل بزينتها وزخرفها ، ساقته إلى الهوان والضياع والخسران وهذا يدل على أن الشاعر قد تمرس الحياة وعاش صروباً من لذائذها وتعلق بكثير من زخارفها ، وزينتها ، فحدثته عنها وكشف حقيقتها ، بوحي بتجربة صادقة عاشها الشاعر واعتملت نفسه بكل حرثياتها فخرجت تلك الحقيقة معبرة عن واقعه وما أضحت عليه حاله من جراء تعلقه بها .

هداية بعد ضلال:

٦. فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي
يا دار كل تشتت وزوال

٧. والآن صار لي الزمان مؤدباً
فغدا عليّ ، وراح بالأمثال

٨. وألان أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغت همي عن الأشغال

٩. ولقد أقام لي المشيب نعاته
يفضي إلى بمفرق وقذال

١٠. ولقد رأيت الموت يبرق سيفه
بيد المنية حيث كنت حيالي

١١. ولقد رأيت عُرَ الحياة تخرمت
ولقد تصدي الوارثون لمالي

اللغة :

٦. **تشتت :** تفرق وهو ضد التجمع

٧. **مؤدبا :** معلما ومنبها **عدا على :** أقبل

راح : ذهب **الامثال :** القصص والنوادر والعظات

٨ **بصرت :** رأيت **السبيل :** الطريق المستقيم

الهدى : الرشاد والفلاح

همم : جمع همة وهي الاهتمام وتعني العزيمة والإصرار

الاشغال : جمع شغل وهو ما يلهي عن غيره من الأعمال.

كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [١] .

٩. **النعاة :** جمع ناع وهو المصوت بما يكره أي الذي يأتي بخبر الموت .

يخفي : يخبر ويُسر

المفرق : بكسر الراء وفتحها : وسط الرأس

القذال : بفتح القاف - جماع مؤخر الرأس والمراد أن رأسه اشتعل شيباً.

١٠. **يبرق :** يلمع . سيف الموت علامته كالكبر والمشيب .

حيالي : إزائي ونحوي .

١١. **الذرا بضم الذال :** جمع عروة . وهي مديت الأرباب في الثياب والمراد أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها .

تخرمت : ثقبت واشقت واخترمته

المنية : أحدته . واخترمهم الدهر أي اقتطعهم وأستأصلهم

تصدي الوارثون : تعرضوا واستعدوا للميراث واقتسامه

١- سورة يس الآية ٥٥

المعنى :

بعد أن كشف الشاعر النقاب عن حقيقة الدنيا . وأنها زائفة وخادعة . تسلل الندم إلى نفسه وقلبه على ما ضاع من عمره في ظل خداعها وزيفها وتأمله في سرابها فأعلن قطع صلاته بها بعد أن تعرف إلى طريق الهدى والفلاح وانصرفت عنايته عما كان يشغلها من قبل وانقطع للتدبر والتفكر في الاستعداد للآخرة . وكيف لا وقد اشتعل رأسه شيبا وهو رسول من رسل الموت . جاء يحمل سقمه ليسقص عليه كما رأى أحوال الدنيا وما كان يأمله فيها قد تقطع من حوله وتمزق صلاته بها وتراءى له الأبناء وهم يتربصون ساعة فراقه لهم ويتزينون بشدة لقائهم ميراثهم .

وكل هذه أدلة يسوقها الشاعر ليؤكد بعده عن الحياة وعن فعل ما يشينه أو يعيبه باقي عمره وأنه بدأ مرحلة جديدة عرف فيها طريق الهدى والرجوع إلى الله ﷻ .

التقوى سبيل الفلاح

١٢. ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تنكر من تصرف حالي

١٣. وإذا اعتبرت رأيت خطب حوادث
يجرين بالأرزاق والآجال

١٤. وإذا تناسبت الرجال فما أرى
نسبا يقاس بصالح الأعمال

١٥. وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلا يصدق قوله بفعال

١٦. وإذا اتقـــى الله أمـــرؤ وأطاعـــه

فيـــداه تـــبنيان مكـــارم ومعـــال

١٧. وعلى لساني إذا ترسّـح في التقـــي

تاجـــان ، تـــاج ســـكينة وجـــلال

اللغة :

١٢. **الحمام** . الموت والعدم وهي نهاية كل المخلوقات ومنه

قول الله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (١)

تنكر : تغير وأصبح منكراً . والتنكر التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها منه والمنكر ضد المعروف

الحال : الشأن والمراد أحواله وتصرفاته وأموره

١٣. **اعتبرت** : تذكرت وتفكرت في عبر الزمان وتصرفاته . ومنه .

قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢)

والمراد التذكرة والتفكر والاعتبار .

الخطب : الشأن أو الأمر صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر

يقال : ما خطبك ؟ أي ما أمرك . وفي التنزيل العزيز

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣)

١- سورة الرحمن الآية ٢٦
٢- سورة الزمر الآية ٢١
٣- سورة الذاريات الآية ٣١

أي ما شأنكم وحالكم والجمع حظوظ الأحوال : جمع أحال هو العمر المحدود . ومنه قوله تعالى

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (١)

١٤. **تناسبت** : ذكرت أنسابها مفاخرة .

وانتسب واستنسب : ذكر نسبه وجمع النسب أنساب

صالح الاعمال : الأقوال والأفعال الطيبة وفي التنزيل العزيز :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢)

١٥. **التقي** : من يقي نفسه المحاذير والرذل

ومنه قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ... ﴾ (٣)

أي أحذروا واحموا أنفسكم .

والتقي : المتقي الذي يحمي نفسه المهالك

الفعال : الفعل وهو ما يقابل القول ومنه قوله سبحانه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٤)

والمراد أن التقي هو الذي يتوافق قوله مع فعله

١- سورة الأنعام الآية ٢
٢- سورة الكهف الآية ٣٠
٣- سورة التحريم من الآية ٦
٤- سورة الصف الآية ٢،٣

١٦. **مكارم** : جمع مكرمة بفتح الميم وضم الراء وهي الأفعال الكريمة

المعالي : جمع (معالاة . وعلا. وعلاء) بمعنى الشرف الثابت والذكر العالي المرتفع

١٧. **التاج** : ما يتاع للملوك من الذهب والجوهر . والعرب تسمي العمائم التاج وفي الحديث (اعمائم تيجان العرب) جمع تاج أي العمائم للعرب بمنزلة التيجان للملوك

نرسخ : رسخ الشيء يرسخ رسوخاً ثبت في موضعه . الراسخ في العلم الذي دخل فيه دخولاً ثابتاً وكل ثابت راسخ ومنه

﴿ ... وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ... ﴾ (١)

أي الثابتون على مدارسة العلم.

سكينة : الاستقرار والهدوء والرزانة . ومنه قوله حلا وعلا :

﴿.. فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا..﴾ (٢)

الجلال : العظمة والرفعة ولا يقال الجلال إلا لله والجليل من صفات الله سبحانه. وقد يوصف به الأمر العظيم والرجل ذو القدر الخطير

المعنى :

أراد الشاعر بعد ما اهتدى إلى طريق الهداية بعد الضلال أن يرسم صورة واضحة المعالم للتقوى والهداية . ليسير في ركابها راغبي الآخرة . وليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة - وبخاصة بعد أن عرف الإنسان من تصرف الأحوال وتقلب الزمان أن الدنيا زائلة فانية . وأن الأحوال والأرزاق لا شأن

١- سورة آل عمران الآية ٧
٢- سورة التوبة من الآية ٤٠

للإنسان في مجرياتها . فهي مخطوطة في علم الله الأزلي للإنسان . تجري بها الأسباب التي كفلها الله للإنسان وهيئها له

وإذا كان الأمر كذلك فإن التقوى هي مفتاح الفلاح وسبيل الب[illegible]نارة السالكين ودرب الايمان والصدق . وأن التقي هو الذي تصدق أقواله أفعاله ويرى رفعته وعلو شأنه في قربه من ربه بالأعمال الصالحة وبالتقوى

﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ [1]

والتقي إذا ما أخلص لربه هداه الله للخيرات والأعمال الصالحات من أقوال وأفعال ويكون عبداً ربانياً يقول للشيء كن فيكون . تنبع الحكمة من لسانه وتسير المكرمات على يديه .

وإذا كان هذا شأن التقوى وسمة المتقين . فما عليهم إلا أن يتزودوا بهذا السلاح وذاك السبيل ليزدادوا وقاراً وسكينة وهيبة .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ... ﴾ [2]

١- سورة الحجرات من الآية ١٣
٢- سورة التوبة من الآية ٤٠

جماليات النص وطرائق التعبير :

لقد بلغ من قوة هذه القصيدة في صدق انفعالها وتعبيرها أن أشارت ابن الأعرابي حتى قال في مجلس بعض الخلفاء " إني ما رأيت قط شاعراً أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر "

- والقصيدة لها أهمية خاصة في حياته النفسية والعقلية جميعا ، لأنها تقع على الخط الفاصل الحرج في حياته حين وصل إلى قرار خاص بسلوكه وفنه ، ونلمح ذلك من خلال لهجته وتعبيره الذي يعتمد فيه على ضمير المتكلم في مثل قوله : قطعت وحطلت وبئست ، فوجدت ، وأرحت - ترحالي - رحالي - بالي وكلها تلمح بل تدل على ما في نفس الشاعر وما حدث فيها من تغيير وما طرأ عليها من تحول
- كما أن تعبيره بالأفعال الماضية في مجال عزوفه عن الدنيا بعد أن تعرف على حقيقتها وسماتها القبيحة فيه دلالة على أنه قد تمرس الحياة أيام الصبابة والهوى وتعلق بالكثير من مغرياتها ، وحمل على عاتقه الكثير من أعبائها نلمح ذلك من خلال قوله قطعت ، حطلت، بئست ، وكأنه بهذا التعبير يلقي عن عاتقه ما كان يتحمله
- كما أنه حين تنتابه نشوة النصر على أهوائه وفرحته بالتخلص مما كان يشغله يستخدم الأفعال الماضية التي تؤكد انصرافه وعزوفه عن الدنيا ، فتأتي الأفعال وجدت - أرحت ، ولئن بئست لربّ برقة حلت - برقت ، لتؤكد هذا المعنى ولتعطي جمالا في أداء الشاعر وحسن التعبير عن تجربته

- كما تأتي كلمات الندم وعثور الحظ دليل على إسرافه وإفراطه في الاشتغال بملذات الحياة وانغماسه في أهوائه خلال ماضيه مثل . ما كان أشأم ، رحاؤك قاتلي ، بنات الوعد يعتملن بدالي .
- هذا بالإضافة إلى إجادته في تخير الصور الفنية المعبرة عما بنفسه والمجسدة لما يحسه في أعماقه تجاه الدنيا وحقيقتها .
- فنرى في البيت الأول صورة رائعة من صور الاستعارة المكنية التي جسدت الآمال شركا وحبائل صيد كثيرا ما أوقعته الدنيا في فخاخها قبل أن يتعرف على حقيقتها كما أن استخدامه لكلمة قطعت تفيد تمام الإجهاز على العلاقة بالدنيا .
- وفي البيت الثالث كناية عن راحة فؤاده وهدأة نفسه بعد أن اعتنق طريق الهدى والفلاح وتكشفت له سمات الدنيا القبيحة ويأسه من أباطيلها وذلك في قوله : فوجدت برد اليأس بين جوانحي .
- وفي البيت الرابع دلالة على إنغماس الشاعر وانصهاره في الحياة اللاهية العابثة قبل عزوفه عنها ، ويقينه بكثرة خداعها وبرق سرابها للراغبين فيها وغير البائسين منها ، لكنه عرف حقيقتها وسبر أغوارها وأبان زيفها وغرورها ويتجلى ذلك في قوله.. لرب برقة خلب برقت لذي طمع ، وبرقة آل .
- وفي البيت الخامس يوظف خياله توظيفاً رائعاً فيأتي بصورة بيانية رائعة أسهمت في تجسيد ما ارتكبه في ماضيه من حماقات وجهل وانشغال بالدنيا .

وفي قوله : " رحاؤك قاتلي " استعارة مكنية تصور شدة حرصه على تحقيق رجائه وأماله .

وفي قوله " ... وعدت " كناية عن الأماني الكاذبة والآمال الخادعة التي مرينها الدنيا لراجيها .

وتمثل هذه الصور وتلك الخيالات تتجسد لنا ملامح حدته وصدق بيته في تقربه من الدنيا ومما كان عليه في سالف عهده وذلك في قوله ما كان أسام

أما في الأبيات من ٦ ١١ نرى أن الشاعر يلح في إظهار فكرته تلك التي تتمثل في معرفته طريق النجاة والهدى ، فقد استعمل من الألفاظ والتعبيرات ما يساعده على إبراز تلك الفكرة

- ففي مجال قراره الفاصل الذي يحاول توكيده يستخدم كلمة (الآن والتي كررت في أوائل الأبيات الثلاثة الأولى والتي تفصل بين واقعة الحالي وماضيه ، ولم يكتف الشاعر بذلك بل حشد الكثير من الألفاظ . يا دار كل تشتت وزوال ، وصار لي الرمان مؤدباً ، وأبصرت السبيل إلى الهدى وتفرغت همتي عن الاشتغال ، فكل هذه الألفاظ تبرز أولاً قدرته على تخيره للألفاظ المرنية والمعبرة عما في نفسه ، وثانياً فإنها جاءت موقية كما أراده من معنى .

ثم إنه في فلسفته التي انتهى إليها ، وأصبحت حقيقة واقعة في نفسه ومنهجاً يسير عليه استخدم لبيان ذلك قوله (رأيت ، ورأى ، وأبصرت) وفي هذه الألفاظ دلالة على وضوح الرؤية وسلامة القصد فيما اتجه إليه .

- كما استخدم أدوات التوكيد ليدلل على أنه لاشك ولا ريبة فيما ذهب إليه وأخبر به ودلك بعد مشاهدته ورؤيته ويلمح دلك من خلال قوله في صدر ثلاثة أبيات " لقد " ويعقبها بقوله (رأيت). (ونصدي).
- أما من ناحية الصور والأخيلة . فإننا نجد أن أبا العتاهية قد صور ورسم بقلمه ما جسده خياله من حسه ومشاعره نحاه واقعه الدي عاشه قبل أن يسلك طريق الهداية والفلاح
- ففي البيت التاسع نجد الاستعارة الرائعة التي جسدت التمنن وهو يقيم نعاته كما أنه يُفضي إليه دون أن يستطيع رده وفي هدا ما يؤكد دور المشيب في حياة الإنسان . على أساس أنه من دلائل وعلامات الفناء ونذير من نذر الموت
- وفي البيت العاشر يأتي بعدة صور للموت في صور محسوسة لتكون أوقع في النفس وأقرب إلى الواقع الذي أضحى عليه بعد ما تقدمت به السن وأصبح قريباً من الآخرة . ومن هده الصور قوله " رأيت الموت . يبرق سيفه . بيد المنية . وهي صورة يتشخص فيها الموت وتتراءى بيد المنية . كما يبدو الموت بريقاً ولمعاناً . وهده استعارة مؤكدة بما لحقها من الاستعارات التي تآزرت جميعاً في إبراز وتصوير المعنوي في صورة محسوسة لتجسد ما في نفسه من انفعالات وعواطف صادقة
- وفي البيت الحادي عشر ما يشير إلى اللوعة والأسى لما صار اليه من ضعف وضعف بحيث لا يقدر على إبقاء سلامته أو صد ما تفعله الحياة بصحته . ويتمثل دلك في قوله (ولقد رأيت عرا الحياة تحرمت) على سبيل الاستعارة المكنية

- وفي الأبيات من ١٢ ١١ . نلحظ أنها جاءت في صور تغلب عليها الحقيقة بل انها بعيدة عن الخيال . ففي عطاف وعمر يسوقنا الشاعر في أسلوب رقيق وعاطفة صادقة لتنساب عبر الأذان إلى القلوب .
- وقد استطاع الشاعر أن يختار الألفاظ والعبارات التي تؤدي ذلك المعنى التي يعتمد على سرد الحقائق وتكرار النصح والإرشاد وتقديم خلاصة تجربته في الحياة . والدعوى إلى الهدى .
- وقد استعان الشاعر على بيان ذلك بما التمسه في القرآن الكريم وبما اقتبسه من السنة النبوية . ومن أقوال الشعراء السابقين .
- ففي البيت الرابع عشر نجد أنه أهتدي إليه من خلال قول الله عز وجل

﴿ ...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ... ﴾ (١)

حيث عبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله : " وإذا تناسبت الرجال فما أرى نسباً يقاس بصالح الأعمال .

كما التمس المعنى نفسه من قول الحطيئة :

وتقوى الله خير الزاد ذخراً
وعند الله للأتقى مزيد

وفي البيت الخامس عشر نجد انه استعمل لفظ التقي بمعنى المؤمن وفي هذا دلالة على أن الإيمان والتقوى مترادفان - كما نراه يحدد مفهوم الإيمان مستعيناً بقول النبي ﷺ : " الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ".

١- سورة الحجرات من الآية ١٣

كما أنه يتمثل معنى قول الله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (١)

وهذه المعاني استطاع الشاعر أن يصنعها في قوله

وإذا بحثت عن التقي وجدته
رجلاً يصدق قوله بفعال

وكأنه بحث على صدق الإيمان ومطابقة الأقوال للأفعال حتى يصدق إيمانه وإلا كان مرائياً . وفي الشعر العربي مثل هذه النصائح التي تكشف زيف بعض الناس ممن يراءون وتحثهم على الإخلاص ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

وفي البيت السابع عشر نجد أن الشاعر قد وفق في اختيار كلمة ترسخ مضعف العين للدلالة على التكثير من عمل التقوى ، وتعميق الإيمان وزيادة التحلي بحير كساء وأحسن ملبس وفي ذلك معنى قوله تعالى

﴿ ...وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ... ﴾ (٢)

١- سورة الصف الآية ٢،٣
٢- سورة الأعراف من الآية ٢٦

وقوله تعالى :

﴿ ...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ... ﴾ (١)

وفي القرآن الكريم آيات تدور في هذا الفلك الذي يدعو إلى ترسيخ الإيمان في القلوب . والآيات في حملتها تمثل قطعة روحية لما أشاعه فيها من روح القرآن وهدي النبي ﷺ . حيث اتجه بها إلى الإرشاد والنصح والتوجيه وفي هذا المقام لا يعتمد الشاعر على الخيال بل يعتمد على الحقيقة المجردة التي لا يصلح غيرها في هذا المقام . لذا نرى التعانق بين الألفاظ وبين ما يريده الشاعر

١- سورة الطلاق : من الآية ٢ ، ٣

obeikandl.com

تعقيب على القصيدة

لقد عبر أبو العتاهية في هذه القصيدة عن رأيه في الحياة . وأكثر من التعبير طويلاً في هذا المضمار وكان أكثر ما يستغرق همه في نظرته إلى الحياة أنها ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وأماني كاذبة .

ولعلنا نستطيع أن نصل إلى خلاصة رأيه في الحياة في كثير من جوانبها كما رآها وتصورها شرا وبلاء وهموماً . وعلى أساس ذلك عرض ما ينبغي أن يكون عليه سلوك من تعرف على حقيقة الدنيا . كما عرض بعض الأسس المتالية التي تصح بها حياة المرء في الدنيا . وتكون له ذخراً في آخرته

وهو يبدو من خلال هذه القصيدة وكأنه أحد على عاتقه ضرورة الأخذ بأيدي الضالين الذين حرفتهم الحياة بعيداً عن سبيل الهدى وسلم الفلاح، ومحاولة إرشادهم إلى طريق الهدى والنور.

ونلحظ كذلك أن الشاعر قد تهيأ له من الصفاء الروحي والخواطر الإيمانية ما جعله يصل إلى طريق الله . بعد أن ضلّت به الأهواء وشغلته الحياة بغرورها وخداعها . فكانت تلك العودة الصادقة الممزوجة بإيمان الخائف ويقين الراجي والحريص على لفت أنظار الطامعين في الحياة الراغبين فيها إلى خداعها وزيفها قبل أن تحرفهم تيارات الفساد وعواصف الأهواء .

والقصيدة بما أودعه الشاعر فيها من سلاسة المعاني ورقة الألفاظ وإحكام النسيج . وبما رسمه فيها من الصور الفنية الرائعة من استعارات وكنايات وتشبيهات ومحسنات لفظية معنوية . أصبحت لوحة فنية متناسقة الأجزاء . كما أنها أبانت وأفصحت في جلاء عن غايته وقصده

كما أن القصيدة تعد صورة حية للحياة في العصر العباسي . وما كان يدور فيها من الترف واللهو والتكالب على الدنيا . والانشغال بمهرجتها وسرابها الخادع . فالقصيدة انعكاسة لكل هذه المدهر

ومن خلال هذه القصيدة وغيرها من شعر الزهد عند الشاعر نرى فصل زيادته لهذا اللون من الشعر . و سنحق أن يكون رائد نزعة خلقية وهذب في عصره فكانت نزعة اللهو والغزل سائغة مألوفة في أدب العصر وبين شعرائه وأدبائه . أما نزعة التأمل في الحياة والاتعاظ بالموت لم تكن ذات شأن في أدب هؤلاء الأدباء الى ان جاء أبو العتاهية فتولاها بشعره السهل وعدّ عنها تعبيرا واضحاً . وأخذ يتعهد هذا الفن الشعري حتى اصبح فناً له أصوله وقواعده عند سائر الشعراء لينسجوا على منواله . وأصبح أبو العتاهية علماً من أعلام أدب الزهد أو شعر الزهد .

ومع هذا فقد أبرز بعض النقاد بعض المآخذ الفنية إلا أنها لا تقلل من القيمة الفنية للقصيدة وذلك مثل ظاهرة التكرار لبعض الكلمات مثل تكراره لكلمة " الآن " في أوائل الأبيات ٦ ، ٧ ، ٨ . وتكراره لكلمة (لقد) في أوائل الأبيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ وتكراره لكلمة (إذا) في الأبيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

وهذا التكرار لا يعد عيباً كما ذكر النقاد إذ إن القصد منه محاولة إبراز الفكرة التي تدور في ذهن الشاعر . فحاول استغراق كل ما يسهم في إظهار تلك الفكرة . وتكرار كل لفظ من هذه الألفاظ له دلالته التي أشرنا إليها في مواطنها

وبهذا تعد القصيدة نموذجاً فنياً رائعاً في شعر الزهد